٥٧ على أبو الشباك الرفاعى صوفى يدعو إلى قيمة العمل

الحديث الآن عن العارف بالله «على أبى الشباك الرفاعى» المعروف برفاعى مصر، وهو أحد أولياء الله الصالحين الذين دعت طريقتهم فى التصوف إلى تمجيد العمل، والحث عليه، وتيسيره لمن أراد إذا كان هذا فى الاستطاعة، وهو أسلوب استمده من جده العارف بالله أحمد الرفاعى، مؤسس الطريقة الرفاعية التى بدأت فى العراق حيث كان يعيش.

لقد كان هذا الجد الصالح يعلن صراحة ـ وليس ضمناً ـ عن شعار وأسلوب طريقته قائلا: «لا ينضم إلى صفوفنا عاطل»، ولذلك نراه كان يشترط على تلاميذه ومريديه أن يكون للواحد منهم عمل يتقنه حتى يعيش منه ويكفيه مذلة السؤال، فإن لم يتيسر له هذا العمل فليبحث له عن عمل، ووضع خطة له، يسير عليها مَنْ جاء بعده من الأبناء والأحفاد، ومنهم الحفيد «على أبو الشباك الرفاعى» مؤدى هذه الخطة: «طريقى دين بلا بدعة، وهمة بلا كسل، وعمل بلا رياء، وقلب بلا شغل، ونفس بلا شهوة..».

وهى قيم ومبادئ مستمدة من السلف الصالح الذى قامت على سواعدهم خير أمة أخرجت للناس، ولم يكن تحقيق ذلك بالتمنى، ولكن بالعمل والجد فيه.

ولم يكن غريباً ـ والأمر كذلك ـ أن تكون معنى الولاية فى رأى حفيده «على أبو الشباك الرفاعى» هى اتخاذ القدوة والمثل من صحابة رسول الله ﷺ وتابعيهم رضوان الله عليهم.

إن الولاية فى رأى رفاعى مصر «على أبى الشباك» عزم وعمل، تقوى وزهد،

إيمان وإصلاح.. هى نصرة للدين، وإقامة لشعائره، وعمل على عزته، ومعاونة فى حمل أعباء أهله.

وليس الوليُّ فى رأى العارف بالله «على أبى الشباك الرفاعى» هو من يتماوت، أو يتكاسل، أو يعيش لنفسه، أويكون عالة على غيره من الناس، أو مَنْ يتصنع الخلوة متكاسلاً عمَّا يفيد مجتمعه من الأعمال، أو مَنْ ينقطع عن الناس متظاهراً بالعبادة. أو الذى يجمع حوله أعداداً من المجاذيب والدراويش الذين لا يعملون فيصبحون عالة على المجتمع. إنما الولى الحق هو ذلك الذى تكون حياته ومواقفه وأعماله كلها موجهة لخدمة الجماعة التى ينتمى إليها، بحيث يكون هو القدوة، وهو المثل بين المريدين والأتباع فى الطريقة. التى تجمعهم، حتى وإن بعدت بين أفرادها المسافات.

هذه المبادئ والقيم التى استمدها رفاعى مصر من جده مؤسس الطريقة الرفاعية بالعراق أحمد الرفاعى تجعلنا نسأل عنه كواحد من الصالحين، وكيف عرفت مصر الطريقة الرفاعية من خلاله؟

سؤال إجابته تدعو إلى النظر فى تاريخ حياته، منذ وفد والده أحمد الصياد الحفيد المباشر للعارف بالله أحمد الرفاعى إلى مصر سنة ثلاث وثمانين وستمائة هجرية، وبقى فيها فترة تزوج خلالها حفيدة الملك الأفضل، ابنة أحد أمراء المماليك فى عهد السلطان سيف الدين قلاوون، لينجب منها ولده «عليًا».

غير أن الجدير بالذكر أن هذا الطفل ـ وهو حفيد للأمراء والملوك ـ ولد بعد رحيل والده أحمد الصياد عن مصر. وبقى فى كنف أمه وأهلها بمصر معززاً مكرماً.

ولابد أن يكون هذا الطفل قد سمع عن أبيه الذى ينتسب إلى مؤسس الطريقة الرفاعية بالعراق، تلك التى انتشر أتباعها فى المشرق العربى وامتد حتى بلاد المغرب. وأنه سمع الكثير عن هذا الجد، خاصة أن الصوفية فى ذلك الوقت كان لها التقدير والاحترام، وهى أمور تتضاعف أهميتها عند المماليك خاصة، لأسباب كثيرة، ترجع جميعها إلى سيطرة الصوفية فى ذلك العصر، ونفوذها الواسع.

ومن هنا نشأ الطفل وشب تقيًا صالحاً، ساعده فى ذلك أن تعهدته أسرته لأمه بالتربية الدينية الصالحة، أن يقرأ ويحفظ القرآن الكريم، وأن يطلع ويتأمل الحديث النبوى الشريف، وأن يعد نفسه كى يتحمل عبء مسئولية الطريقة الرفاعية التى أنشأها جده، لكى يكون جديراً بلقب رفاعى مصر، تمييزاً له عن هذا الجد رفاعى العراق.

وهكذا بدأ المريدون والأتباع يلتفون حول هذا الرجل الصالح لما سمعوه عنه من التقوى والصلاح، ولما عرفوه عن جده لأبيه أحمد الرفاعى من الكرامات، ولما لمسوه من هذا الحفيد من الإهتمام بإحياء ونشر أسلوب الجد، وإتخاذ طريقته الصوفية أسلوبًا فى الحياة، متخذاً من مسكن أسرته التى تنتسب إلى الملك الأفضل فى سوق السلاح مقرًا للطريقة الرفاعية بمصر.

ولا يعنى اتخاذ العارف بالله «على أبى الشباك» القاهرة مركزاً للطريقة الرفاعية أن يقال إنه أول من أدخل هذه الطريقة إلى مصر، حيث سبقه إلى ذلك الشيخ أبو الفتح الواسطى، أحد أتباع مؤسس الطريقة أحمد الرفاعى، الذى وفد من العراق فى أوائل القرن السابع الهجرى، أى قبل رفاعى مصر بنحو نصف قرن، ولكنه أقام بالإسكندرية، ومنها نشر طريقة أستاذه رفاعى العراق.

والذى جعل هذه الطريقة الرفاعية تُنسب إلى رفاعى مصر «على الشباك» أمران: أولهما دينى متصل بسيرته، حيث إنه حفيد للقطب أحمد الرفاعى الذى ينتهى نسبه إلى العلويين، ولذلك فإن جده السابع «رفاعة» هاجر إلى المغرب هرباً من عسف واضطهاد العباسيين لأتباع على بن أبى طالب وابنه الإمام الحسين رضى الله عنهما فى المشرق. وقد استقر هذا الجد الأكبر رفاعة فى أشبيلية بالأندلس. وهناك تزوج وأنجب عدداً كبيراً من الأولاد، وقد سافر أحد أحفاده يحيى رفاعة إلى الحجاز لتأدية فريضة الحج، وبعد إقامة قصيرة فى مكة رحل إلى البصرة، حيث سُمى بالرفاعى، وأنجب ولديه الحسن الرفاعى، وأحمد الرفاعى الذى تنسب إليه الطريقة الرفاعية.

أما الأمر الثانى الذى جعل الطريقة الرفاعية تنسب إلى رفاعى مصر «على

الشباك» دون غيره. فهو اجتماعيٌّ، متصل بقرابته للملك الأفضل من ناحية والدته على ما رأينا، وهو أمر على جانب كبير من الأهمية فى ذلك الوقت.. حيث كان نفوذ المماليك فى مصر واضحاً.

لهذا ولغيره من أسباب تتصل به ـ أى برفاعى مصر ـ نسبت الطريقة الرفاعية إليه، برغم أن هناك من سبقه داعياً إليها، مثل أبى الفتح الواسطى على ما رأينا.

أما لماذا سمى رفاعى مصر بعلى أبى الشباك، فذلك لأنه كان يحرص أحياناً على تلقى طلبات أتباعه ومريديه ويرد عليها من النافذة «الشباك»، ولذلك لَقَّبَهُ العامة فى ذلك الوقت بأبى الشباك. ولعل ذلك متصل أيضاً بأحوال اجتماعية خاصة به كواحد من سلالة الملوك والأمراء.

ولقد ظل رفاعى مصر بالقاهرة يدعو إلى الطريقة الرفاعية التى ورثها عن جده رفاعى العراق.. حتى توفى ودفن بالمسجد المعروف باسمه فى القلعة. وكما يذكر على مبارك فى خططه التوفيقية أنه كان يَرِدُ لزيارة سيدى على أبى الشباك رفاعى مصر وحفيد رفاعى العراق خلق كثير من القاهرة ومن غيرها فى القطر المصرى، لاعتقادهم أنه يستطيع أن يشفى المصابين بالأمراض النفسية أو العصبية المعروفة عند العامة بالرياح الطبيعية، وهو مجرد اعتقاد ربما ساعدهم على الشفاء.

ولعل مثل هذه الاعتقادات التى ليس لها سند من العلم يجعلنا نشير من بعيد إلى ما ينسب إلى الطريقة الرفاعية من كرامات وأفعال ما زال أهل ريف مصر يؤمنون بها، ومنها إصطياد الثعابين. وهنا تذكر الدكتورة سعاد ماهر فى حديثها عن مسجد الرفاعى بالقلعة أنها رجعت إلى ترجمة الإمام الرفاعى فلم تعثر على أى إشارة من قريب أو من بعيد تدل على أنه كان يأتى بمثل هذه الكرمات والأفعال التى جاءت على ألسنة أتباعه ومريديه كما يقول ابن خلكان: «ولأتباعه أحوال عجيبة من مسك الثعابين وأكلها، والنزول فى التنانير وهى تتضرم بالنار فيطفئونها».

أقول إن هذا مجرد اعتقاد من الأتباع والمريدين لا يؤيده سند من العلم اللهم إلا إشارة ابن عربى إلى نوع من الرياضات الروحية تؤهل مزاوليها على الإتيان بأعمال غير عادية، إن لم تكن خارقة.

غير أن هذا لا يقلل من شأن رفاعى مصر المتصل نسبه برفاعى العراق الذى ينتهى نسبه إلى العلويين، وبأن هذا الجد قد ترك كثيراً من الكتب فى مختلف العلوم الدينية فى التوحيد والتفسير، والحديث والتصوف، والفقه، ومنها كتاب «البهجة» و«شرح التنبيه فى الفقه الشافعى». وأن حفيده رفاعى مصر ما زال يحظى بتقدير أهلها، فما زال أتباع طريقته يفدون إلى مسجده بالقلعة، ولهم لقاءات تتجدد أسبوعيًا يحرصون فيها على إحياء طريقته إلى جانب أيام يخصصونها للإحتفال بذكراه.

* * *